الأستــاذ: غـفـور عـبـد البـاقـي.

المقياس: أنثروبولوجيا الجزائر.

السنة الثانية ليسانس– أنتروبولوجيا–

شعبة الأنتروبولوجيا– قسم علم الاجتماع.

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

**مقدمة:**

لقد مثلت الجزائر بالنسبة للمستعمر الفرنسي جوهرة المستعمرات، فعمدت إلى الاحتفاظ باستعمارها ولو بتخليها على جل مستعمراتها الأخرى في إفريقيا أو في المغرب العربي.

من أجل ذلك عزمت على معرفة كل شيء على المجتمع الجزائري – الأهالي–ودراسته من أجل ترويضه والسيطرة عليه، بعد السيطرة على الأرض.

وهنا ظهرت ضرورة استدعاء الأنثروبولوجيا وعسكرتها بالطريقة التي تحقق بها هذه الأهداف.

وسنوجز هذا الاستدعاء–استدعاء المستعمر الفرنسي للأنثروبولوجيا وعسكرتها في محورين إثنين كالآتي:

المحور الأول: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر.

المحور الثاني: أدلجة علم الأنثروبولوجيا لصالح الاستعمار.

## المحور الأول: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر:

يمكن الوقوف على واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر من خلال المراحل الثلاثة التالية :

- مرحلة ما قبل الإستقلال.
- مرحلة غداة الاستقلال.
- مرحلة الثمانينيات.

### أولا: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر قبل الاستقلال:

في حقل الدراسات الأنثروبولوجية الكولونيالية للمجتمع الجزائري نستطيع أن نميز ثلاث فترات متميزة من الدراسات هي:

- فترة الدراسات الاستكشافية المرتبطة بتحضير الحملة الاستعمارية على الجزائر قبل 1830م.
- فترة الدراسات العسكرية أو ما يعرف بمرحلة الضابط-الباحث، التي تمتد ما بين 1830م و1870م.
- أما الفترة الثالثة والتي تبدأ من سنة 1870م وتستمر حتى بعد الاستقلال، فقد مثلتها الأعمال الأكاديمية.

والجدير بالذكر أن الغاية من كل هذه الدراسات كانت، فهم تركيبة المجتمع الجزائري والنفاذ إلى أعماق ثقافته، من أجل إحكام السيطرة عليه.

### 1-الدراسات الاستكشافية:

عندما نرجع إلى البحث عن المصادر الأولى لنشأة هذه الأبحاث الاستكشافية، فإننا نجدها تعود إلى المجهودات والأعمال التي قامت بها جماعة من الرحالة والتجار والمغامرين الذين ألّفوا كثيرا من الوثائق والنصوص حول طبيعة الممالك البربرية ومماليك إفريقيا الشمالية الموجودة في منطقة فاس بالمغرب ومنطقة الجزائر. إضافة إلى هذه الأعمال، نجد مساهمات ذات أهمية تاريخية واستراتيجية خاصة، منها تلك التي قام بها:

- " جان أندري بايسونال " (Peyssonnel) خلال عامي 1724م و1725م، حيث زار الشرق الجزائري وقدم عملا هاما عن الجزائر، تضمّن معلومات جغرافية، طبيعية واجتماعية قيمة.

– وكذلك الرحالة الإنجليزي الدكتور "توماس شاو" (Shaw) الذي ترك كتابات هامة حول الجزائريين بين سنة 1720م إلى سنة 1752م، وحينها كان مسافرا إنجليزيا إلى الجزائر قبل أن يعيّن كممثّل للكنيسة لدى قنصل بريطانيا في الجزائر.

ولقد قدم "شاو" عملا نادرا بعنوان " جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق " تضمّن أوصافا دقيقة وتفاصيل عن بلاد الجزائر، وخاصة عن ريفها ومنتجاتها وآدابها، مثلما تضمّن قليلا من المعلومات عن الحياة السياسية والإدارية.

– ومن بين أهم الدراسات التي نراها هامة جدا من أجل توضيح طابع الأبحاث الاستكشافية حول الجزائر، نجد الدراسة المشهورة لـ "إميل كاريت" (E. Carette) حول منطقة القبائل، وذلك حسب الأهداف العسكرية والسياسية المسطرة من قبل موجهي هذه الدراسة. والتي وصل حجمها إلى أربعين مجلدا مصنفا حسب المواضيع والخصوصيات التي يمكننا تلخيصها في النقاط التالية: الخصوصيات العامة للغة البربرية، علاقة الخصوصيات اللغوية بالتنوع الجغرافي، وصف أهم النشاطات الاقتصادية الموجودة في المنطقة، وأهم الثروات، التجارة والأسواق، وصف الجانب الديمغرافي وتركيبته الاجتماعية مع تحديد توزيعه وكثافته.

**2–الدراسات العسكرية:**

بعد الدراسات الاستكشافية ظهر نوع آخر من الدراسات هي الدراسات العسكرية. وهذا لا يعني أن الدراسات الاستكشافية الأولى لا تدخل في إطار ما نسميه بالدراسات العسكرية، كل ما في الأمر أن الدراسات العسكرية تأتي بعد 1830م، وقامت على يد العسكريين.

إن أصحاب هذه الدراسات هم الضباط المكونين للجيش الفرنسي وفي نفس الوقت هم الباحثون والمنتجون لهذه الدراسات. ولذا تعرف كذلك بدراسات الضابط–الباحث.

ويمكن تصنيف دراسة هانوتو–لوتورنو A. Letourneux – A. Hanotaux المشهورة حول منطقة القبائل، بعنوان:" منطقة القبائل وأعرافها "، من بين أهم وأكبر الدراسات الأنتروبولوجية الكولونيالية العسكرية التي عرفتها الجزائر إبان العهد الاستعماري الفرنسي. إذ تعد ضمن المشاريع الدراسية الكبرى للمشروع الفرنسي.

ومن بين أهم العوامل والأسباب التي دفعت الإدارة الاستعمارية إلى التفكير والتخطيط في مثل هذه المشاريع والدراسات هو بروز المقاومات الشعبية ومدى خطورتها على مستقبل الوجود الاستعماري.

ونفهم من خلال هذه المقدمة أن المهمة العاجلة التي أنجزت من أجلها هذه الدراسة، هي تنظيم الإدارة الاستعمارية وتوسيعها لتشمل مناطق أخرى جديدة، خاصة منطقة القبائل التي ما زالت حينها لم تدخل في إطار

الهيكلة الإدارية الاستعمارية، الأمر الذي أدى بالسلطة الاستعمارية أن توجّه اهتماماتها بتنظيم بحوث ودراسات اثنوجرافية وتاريخية، غرضها وصف الوقائع الاجتماعية من العادات والتقاليد والأعراف التي تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية للأهالي والأعراش.

ويعد هذا الكتاب بمثابة " موسوعة ثقافية – اجتماعية " لمنطقة جرجرة في القرن التاسع عشر، علما أن المؤلف لم يخف الغاية من تأليفه، إذ أشار في مقدمته إلى أهميته في مساعدة الإدارة الفرنسية على بسط نفوذها، وهدم القضاء الإسلامي، تمهيدا لتكريس القضاء الفرنسي في المنطقة.

ولما كان "هانوتو" في أمس الحاجة إلى من يساعده على تحرير كتاب" القبائل وطبائع أهلها "، عرض الفكرة على "لوتورنو" المستشار القانوني لمحكمة الجزائر صائفة 1863م، الذي رحب بها أيما ترحيب، خاصة وأنه كان ضالعا في الفقه الإسلامي، ومتمكنا من اللغة العربية، فضلا عن كونه عاشقا لركوب المغامرة في المجالات الاستكشافية.، وكونه مهتما بمنطقة القبائل بصفته هاويا لاكتشاف النباتات الطبيعية ومعرفة أسرارها.

**3-الدراسات الأكاديمية:**

إلى جانب الدراسات الاستكشافية والأبحاث العسكرية التي كانت تشكّل الحيّز المعرفي للدراسات الكولونيالية، نجد انتشار صنف آخر من الدراسات حول الإنتاج المعرفي الأكاديمي، والتي تطورت كثيرا ابتداء من سنة 1870م، وهي الدراسات الأكاديمية.

ويرجع سبب تصنيف هذه الدراسات في حقل الدراسات الأكاديمية، إلى طبيعة البحوث في حد ذاتها، وكذلك إلى أصحابها الذين ينتمون إلى فئة الجامعيين الذين تمكّنوا من تأليف دراسات وأطروحات جامعية مختلفة، تمحورت أساسا حول الإيديولوجية المعرفية والعلمية للإدارة الاستعمارية.

أي أن هذه الأبحاث رغم كونها أبحاثا جامعية وأكاديمية، بقيت دائما في خدمة الحاجات والمشاريع والأغراض الاستعمارية، بحيث أنها تشكّل الإطار المعرفي والعلمي لكثير من التوجيهات والإجراءات العملية للإدارة الاستعمارية خلال سنوات عديدة.

ومن هذه الدراسات نذكر على سبيل المثال وليس الحصر، الدراسة المونوغرافية التي قام بها "كونيل" (Cauneille) حول قبائل الشعابنة، وأعمال " مسكراي " (Masquereil) التي ركز فيها على ثلاث وحدات اجتماعية جزائرية لها تقاليد عريقة هي: القبائل، المزاب، الشاوية، حتى وإن كان الكثير يصنف دراساته في المرحلة الأولى خصوصا أنها أنجزت زمنيا ضمنها، لكنها لا تفقد القيمة الأكاديمية. ناهيك عن أعمال"جاك بيرك" (Jacques Berque) و"بيير بورديو"( Pierre Bordieu) و"بنجامين ستورا" (Benjamin Stora) ...

وبقدر ما نحتاج إلى مؤلفات "هانوتو" و"ماسكوراي" وغيرها، التي لا يمكن القفز عليها – باعتبارها مدونة وثائقية نافعة – فإن الاستفادة منها يقتضي إعادة قراءتها قراءة علمية وموضوعية جديرة بتخليصها من الرؤية الاستعمارية.

**المرحلة الثانية: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر غداة الاستقلال.**

لم تحقق الأنثروبولوجيا لنفسها مكانة متميزة في حقل العلوم الاجتماعية بالجزائر، لأسباب عدة، نذكر منها:

– اقتران علم الأنثروبولوجيا بالتوجه الاستعماري: ويعد هذا عاملا أساسيا لعدم اعتماد الأنثروبولوجيا كتخصص علمي ضمن المنظومة التعليمية في الجامعة الجزائرية.

– ارتباط الأنثروبولوجيا في بداياتها بالنزعة التطورية في تفسير الظواهر الاجتماعية. حيث استقر لدى الأوروبيين بما فيهم المستعمر الفرنسي، أن الحضارة البشرية كلها تتطور حسب نظم وقواعد ثابتة وموحدة، لا تتغير بتغير المكان والزمان. وهذا يعني أن الشعوب البدائية تمثل المراحل الأولى في التطور بالنسبة للمجتمعات المتقدمة.

ويمثل هذا النوع من "التبرير العلمي" ذريعة لاندفاع الأوروبيين نحو فهم تركيبة وثقافة المجتمعات الأخرى، بما يظهر نوعا من التوافق بين الأنثروبولوجيا والاستعمار. أي بين أيديولوجية الاستعمار وأيديولوجية الأنثروبولوجيا.

– اهتمام الأنثروبولوجيا بالمجتمعات البدائية.

**المرحلة الثاثة: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر بعد فترة الثمانينات.**

في الجزائر المستقلة فإن ميلاد تخصص الأنثروبولوجيا يعود لتنصيب أول معهد وطني للثقافة الشعبية بجامعة تلمسان، وذلك بناء على مرسوم صادر في 18 أوت 1984، وتجدر الإشارة إلى أن اعتماد الأنثروبولوجيا لم يتم منذ البداية مع تنصيب معهد الثقافة الشعبية، بل جاء تتويجا لعدد من الخطوات والمراحل التي قطعها هذا المعهد. ففي البداية أوكلت له مهمة الاهتمام بالثقافة الشعبية بشكل عام كتخصص أولي، ثم جاء الاعتراف سنة 1990 بالأدب الشعبي كاختصاص قائم بذاته، لينتهي الأمر بالاعتراف بشعبة الأنثروبولوجيا. وقد عرفت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر مع بداية هذا القرن وثبة وانتعاشا مميزين بعد مرحلة التردد التي واكبت فترة الإقلاع خلال التسعينات من القرن الماضي، حيث كان هذا التخصص مقتصرا على جامعة تلمسان دون غيرها من الجامعات الأخرى، وتوَج هذا الانتعاش بفتح أقسام ما بعد التدرج – ماجستير ودكتوراه – في كل من جامعتي وهران وقسنطينة، تبعتهما خطوات أخرى تمثلت في اعتماد أقسام مستقلة في مرحلة التدرج في كل من جامعة خنشلة وتبسة، وبالمركز الجامعي بالبيض لاحقا.

## المحور الثاني: أدلجة علم الأنثروبولوجيا لصالح الاستعمار:

لقد سعى الاستعمار الفرنسي في الجزائر إلى تكوين معرفة بالجزائري ومحيطه، غير أن هذه المعرفة لا تهم إن كانت صادقة، ولكن المهم هو أن تؤدي وظيفة بالنسبة للنظام الاستعماري، أن تكون سندا أيديولوجيا للآلة العسكرية عند الغزو وبعده.

كما عمل الاستعمار الفرنسي ومن خلال الأنثروبولوجيا على تفكيك البنية الاجتماعية والثقافية بإعطاء صورة وهمية عن العناصر المشكلة لهذه البنية، بغية زرع توترات وشكوك داخلها، وبما يسمح بسيطرة المستعمرين من الناحيتين الثقافية والمادية.

ولعل أهم ما ركزت عليه الأنثروبولوجيا الاستعمارية تقسيم المجتمع الجزائري إلى ثنائيات بغرض التَفريق وإضعاف التَماسك الاجتماعي، إضافة إلى التَعليم والدين والمرأة وبعض العناصر الأخرى كعوامل جوهرية في هذا التماسك.

### 1-التفكيك الاجتماعي:

تجسدت عملية التفكيك الاجتماعي لدى الاستعمار كاستراتيجية عن طريق دراسة البنى الاجتماعية باعتبارها بنى مفككة ومنقسمة، ذلك الذي جعلها عرضة لتطبيق مفاهيم الاتجاه الانقسامي الذي من سماته الأساسية دراسة المجتمع من خلال الانقسامات الحاصلة فيه، لذلك نجد الأنثروبولوجيا الاستعمارية تعمل على التنظير للمجتمع الجزائري من خلال بعض الثنائيات مثل: ثنائية (عرب، بربر) وثنائية (أهلي، كولون) ...الخ.

ومن الدراسات التي أقيمت ضمن هذا السياق، والتي عملت على وصف المجتمع الجزائري في شكله الانقسامي الدراسات التي قام بها "دوماس" و " فابار" dumas et fabar عام 1847م حول القبائل الكبرى، ودراسة "ديفو" c. devaux عن قبائل جرجرة عام 1859م، ودراسة " هانوتو" و"" لوتورنو" hanoteau et letourneux بين عامي 1872م و 1873م بعنوان " "القبائل وعادات القبائليين" la Kabylie et les coutumes kabyles ودراسة "ماسكراي" عام 1886م بعنوان " تكوين المدن عند سكان الحضر في الجزائر" formation des cités chez les population sédentaires de l'Algérie ....الخ.

لقد كان هذا التشتيت في خدمة سياسة "فرّق تسد" التي لجأ إليها الاستعمار من أجل بسط سيادته على الأرض وساكنيها.

إن الثنائية الأكثر تداولا في مخبر الأنثروبولوجيا الاستعمارية هي ثنائية "عرب-بربر"، لقد قدمت الدراسات الكولونيالية هذين العرقين في صورة صراع وتنافر، وصوّرت البربر باعتبارهم أصحاب الأرض، أما العرب فهم غزاة

محتلون. كما اتجه الاستعمار إلى الخصائص الأساسية لسكان القبائل وأصلهم؛ لتمييزهم عن إخوانهم العرب، فذكر أصلهم الوندالي، ووصفهم ببرودة وهشاشة إسلامهم.

ولعل من التنظيرات التي حاولت الأنثروبولوجيا الاستعمارية تقريرها في سياق التفريق بين العرب والبربر ما أنجز من "إثنوغرافيات" حول العرقين والمقارنات التي تمّت بينهما، ففي العرض الذي أورده "لوكا و فاتان" لدراسة "دوماس وفابار" يقرّر هذان الأخيران ما يلي: "يتميّز العربي بكرهه للعمل فهو كسول، ولا يهتم طوال السنة سوى بإشباع شهواته، أما القبائلي فهو يعمل ويكد طوال الموسم، ويعتبر الكسل عارا مهينا".

ويضيف هذان الباحثان أنَ هناك تنافرا أبديا بين العرب والبربر، حيث لا شيء يجمع بينهما سوى الكراهية، " فالقبائلي يكره العربي، والعربي يكره القبائلي، فهذا المقت المتأجَج لا يمكن تفسيره إلا بشعور تقليدي توارثته الأجيال، كره بين عرق الغزاة (العرب) والعرق المقهور (أي القبائل)، ذلك ما يؤكّده الواقع المعيش بتواجد لغتين مختلفتين".

**2-التعليم:**

شهد التعليم كغيره من البنيات الاجتماعية الأخرى بعد دخول الاستعمار تحطيما واضحا، فقد كان التعليم مستهدفا لمعرفة الاستعمار دوره في بث روح المقاومة لدى الجزائريين، فكانت نتيجة ذلك هي إغلاق المدارس وهدم الزوايا والمساجد التي كانت تعلّم علوم اللغة والدين، وكان واجبا على الاستعمار ومنظريه أن يقوموا ببناء سياسة تعليمية تكون سندا لهم، وتسمح ببسط السيطرة، لكن ذلك لم يتهيأ بادئ الأمر نتيجة الانشغال بالحرب.

جاء في أحد التقارير الرسمية عام 1851م، أن قضية التعليم قضية ملحة يجب الإسراع في حلّها، لجعل الأجيال القادمة تحت طاعته وسيطرته. هذه الأجيال التي ستكون مختلفة عن الجيل السابق؛ أجيال تفكّر بتفكير المستعمر وتخدم مصالحه من حيث تشعر أو لا تشعر. واستراتيجية تعليمية تكون بمثابة الدرع الأيديولوجي للاستعمار، ومحاولة إدماج الجزائريين (الأهالي).

وفي هذا يكتب أحد منظري التعليم الاستعماري:" إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وأخلص في خدمتهم لمشاريعنا هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود إذن باختصار هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد."

لقد كان الهدف من تخصيص مساحة لتعليم الجزائريين هو " تكوين نخبة مزيفة من المثقفين، مقطوعة الصلة بالجماهير الشعبية، بحيث يشعر أولئك المثقفون بأنهم غرباء عن ذويهم، فتنقطع صلتهم بأبناء البلاد، ويتنكرون للتقاليد، ويتشبهون بأسيادهم."

لكن هذا يرافقه حرص وانتقاء شديدان للمتعلمين وبرامج التعليم، ففتح المجال أمام تطور التعليم في الجزائر لم يكن الهدف المقصود –كما ذكرنا–بقدر ما كان الهدف هو إيجاد وسيط للتحكم في الأهالي، لأن تعليم الأهالي بشكل واسع ومن دون حدود من شأنه أن يشكل خطرا على الاستعمار، من خلال نمو الوعي لدى هؤلاء الأهالي، ومعرفتهم بالآليات المختلفة للتحرر. وهنا يرى "بيجوي" Péguy " أن أحد المبادئ الأساسية في التعليم الاستعماري هو الحرص كل الحرص على أن لا يتحول ذلك التعليم إلى أداة يستغلها المشاغبون لإحداث الاضطرابات في المجتمع."

لقد كان التعليم إجباريا في فرنسا سنة 1872م، وعلى أبناء الأوروبيين في الجزائر سنة 1873م، أما بالنسبة للجزائريين فالإلزام لم يكن واردا، رغم اعتبار الجزائر جزءا من فرنسا. وعلى حد تعبير الباحث الروسي "فلاديمير ماكسيمينكو":" فإن الهدف الذي كانت تنشده المدرسة التي أنشأها الفرنسيون في بلدان المغرب، هو الاستقرار الاجتماعي وليس التغيير الاجتماعي."

**3 / الدين :**

لقد وعى الاستعمار الفرنسي ما للدين من دور في توجيه الأفراد، فهو وعاء أيديولوجي مهم، لذلك كان سعي الفرنسيين واضحا في الحد من دوره لدى الأفراد في المجتمع الجزائري، والعمل على تفعيل هذا الدور في الجهة المقابلة، أي استغلال قدرة هذا الإطار (الدين) في التوجيه والسيطرة، ليصبح الدين في يد الاستعمار وليس ضده. ومن أجل تعزيز السيطرة على الأرض عمد الاستعمار إلى قيم الإسلام ونظامه الاجتماعي ومختلف مؤسساته فأحدث فيها خرابا كبيرا.

يقول النائب الفرنسي "دو توكفيل" مصورا الخراب الذي لحق بالمجتمع الجزائري من خلال سعي الفرنسيين إلى تحطيم مؤسساته الدينية:" إن المجتمع الإسلامي في إفريقيا الشمالية، لم يكن غير متمدن بل كانت مدنيته متأخرة وناقصة، وكان يحتوي على عدد كبير من المؤسسات الدينية مهمتها البر والإحسان، ونشر التعليم في جميع الوطن؛ وقد استحوذنا على مداخيلها وحرفنا أهدافها، وقضينا على الجمعيات الخيرية، وخربنا المدارس فهدت دعائم العرفان، وشتتنا شمل الزوايا." كما تم تحويل المساجد إلى كنائس، والعمل على نشر المسيحية والتبشير بها في القطر الإسلامي، واستعملت في ذلك أموال المسلمين.

هناك مفارقة عجيبة في اشتغال الاستعمار على العنصر الديني، حيث رفضت فرنسا " الأنوار" الدين المسيحي باعتباره معيقا لتطور الحضارة، ولكن هذا الدين يستدعى في الجزائر ليكون مدخلا للحضارة والمدنية لدى الشعوب المتخلفة وراء البحر.

لقد كان التيار الديني الفرنسي عند احتلال الجزائر يرى أنه من الضروري إدماج الجزائريين في منظومة الحضارة الفرنسية، وكان الهدف الأساسي من ذلك هو " عودة " البربر لدين وحضارة أجدادهم، أما العرب فإن مصيرهم الإبادة إن هم تشبثوا بدين محمد. لذلك كان " لافيرجي" يرى في العرب وباء على العنصر الأوروبي يجب على الاستعمار الفرنسي أن يقوم بتنصير كل الأهالي أو طردهم إلى الصحراء بعيدا عن كل حضارة.

لقد كان الإسلام في نظر هذا التيار بمثابة الخطر الداهم الذي يجب زحزحته وإبعاده، لذلك كان عمل المبشرين والمنظرين الدينيين متمحورا حول تسفيه قيمة الدين الإسلامي ودوره الحضاري، وبالمقابل الإعلاء من شأن الدين المسيحي الذي يشكل إحدى آليات الإدماج الثقافي.

وقد تفطن الباحثون الاستعماريون لدور الجماعات والتنظيمات الدينية، فراحوا ينظرون لها، ويحذرون منها، وبالمقابل يدعون لاستخدامها كواسطة للسيطرة، وقد كان هذا الاهتمام بهذه التنظيمات واضحا في بعض الكتابات مثل البحث الذي قدمه الضابط " دونوفو " deneveux عن أعضاء الطريقة، وما ألفه " ترومیلیه" trumulet عن الأولياء الصالحين في الجزائر وأضرحتهم ومعتقداتهم وكراماتهم ..الخ.

لذلك فإن الأمر كان يستلزم الدخول في عمق الزوايا وتشريحها بما يسمح بوضع خارطة لانتشارها وأنماط تنظيمها، وبما يسمح أيضا بمراقبتها.

فطالما صرح ضباط الشؤون الأهلية والجامعيون (روني باسي ودوتي) بأن:" القادرية والرحمانية والشاذلية لم تعد تهدد النظام الاستعماري منذ سنوات، وأن الملاحظين يمكن أن يسجلوا أن المقدمين moqaddem والشيوخ هم وسطاء بين الإدارة الفرنسية والأهالي."

والجدير بالذكر أن باحثوا الاستعمار حاولوا الوقوف على بعض الممارسات مثل عبادة الأولياء الصالحين وبعض الطقوس والممارسات السحرية ...الخ، باعتباره سببا للتخلف.

**4 / المرأة:**

كان مجال المرأة من المجالات الحساسة التي جلبت النظر إليها من قبل باحثي وعساكر الاستعمار، كما كان من المجالات الأولى التي استدعت الاهتمام باعتبار المرأة قاعدة وأساسا للبناء الاجتماعي، لذلك تستوقفنا العديد من الكتابات الاستعمارية عن المرأة والتي كانت تستهدف تكوين معرفة بها من جهة، ومن جهة ثانية فتح باب الإدماج الثقافي والحضاري من خلال المرأة كبوابة أساسية لذلك، ومن هذه الكتابات كتاب "يوجين دوماس" عن المرأة العربية والذي كان من أوائل الكتب الاستعمارية حول المرأة، وكتاب "أرنست ميرسي" المرأة العربية في شمال إفريقيا، والمرأة البربرية لـ "رين"، وكذلك كتابات " ماري بوجيجا" ...الخ.

ولقد هيئ لغرض وصف حال المرأة في الجزائر العديد من النساء من أجل معرفة أحوالها، وترصد أنماط تفكيرها، تمهيدا لإدماجها، فكان القلم والصليب يسيران جنبا إلى جنب في هذه العملية، وبدأ الاتصال بين النساء الأوروبيات والعربيات لتكسير حاجز الخوف، وتقريب نساء الأهالي من هؤلاء الأوروبيات، كان ذلك خاصة من خلال فتح ورشات لتعليم الطرز والنسيج لتتحول هذه الأخيرة لتقديم دروس في الترقية الاجتماعية والدمج الحضاري.

وعلى وجه العموم فقد قدمت العديد من الأوصاف للمرأة الجزائرية، لكن معظمها يصب في خانة الازدراء ونعتها بالتخلف، وخضوعها للرجل، وأنها ضحية للتقاليد الإسلامية. ولذلك كانت محاولات " التحضير" تماشيا مع " التحضير العام" للمجتمع الجزائري.

ومن هذه الأوصاف ما قدم في سياق مقارنة بين المرأة العربية والمرأة البربرية، ذلك الذي يدخل في سياق السياسة الاستعمارية للتفريق بين العرب والبربر. وللتدليل على هذا يمكن الرجوع إلى ما قدمه "دوماس" و "فابار" في دراستهما حول القبائل الكبرى :" القبائليات يتمتعن بحرية كبيرة ولهن مكانتهن في المجتمع، وعلى العكس تماما من النساء العربيات، فالمرأة العربية لا تجتمع مع الرجال وتبقى دائما حبيسة النقاب (الحايك) بينما تجلس القبائلية حيث تشاء، تجادل وتغني سافرة الوجه." ويرى الباحثان أيضا أن " المرأة العادية عند العرب عموما قذرة، أما المرأة القبائلية فهي أكثر نظافة، وتعد هندامها مرتين في اليوم، في الصباح تنظف جسمها، وفي المساء تكثر من عملية الزينة والحنة."

**خاتمة:**

لقد كانت الأنثروبولوجيا على وجه العموم – وبغض النظر عن قيمتها من الناحية المعرفية – أداة أساسية في يد الاستعمار من أجل بسط هيمنته على الشعوب المستعمرة، وذلك الذي حدث في الجزائر من خلال ممارسة أنثروبولوجية لم تكن مستوفية لكل الشروط العلمية، حيث باشر التنظير للمجتمع الجزائري ضباط في الجيش ومستكشفون، قبل أن يتولى الأمر أنثروبولوجيون متخصصون، هؤلاء الذين لم يخرجوا عن سابقيهم حيث كانت أبحاثهم تصب في مصلحة الاستعمار، وكانت القضايا والمجالات التي لاقت اهتماما أكبر من قبل هؤلاء الأنثروبولوجيين: قضية العرق والدين وكذلك التنظيمات الدينية وقضية التعليم والمرأة..الخ ، نظرا لأهميتها في التوجيه الاجتماعي والثقافي، ودورها الكبير في التحكم والسيطرة، ويبدوا أن أسطورة التحضير التي تغنى بها الاستعمار قد أثبتت في نهاية عهده أنها أسطورة زائفة، خاصة إذا وجهنا النظر للنخبة التي تكونت على يديه، والتي سرعان ما ثارت عليه وقادت عملية التحرير.